



سر بيت الأشباح

محمد علي قطب

الدار النموذجية للطباعة والنشر
صيدا - بيروت

سلسلة الأسرار الإسلامية

سر بيت الأشباح

إعداد
محمد علي قطب

الدار النموذجية للطباعة والنشر
صيدا - بيروت



الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

شركة أبناء شريف الأنصاري
فروعها المكتبة العصرية
الدار النموذجية
بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - صيدا - ص.ب ٢٢١
تلكس: 20427LE - 29198LE SCS

بسم الله الرحمن الرحيم

يقوم على شاطئ إحدى الْجُزُر في الشرق الأقصى هيكل بناءٍ قديم. . .، كان في يوم من أيام التاريخ البعيد مَعْبداً لِأَهْلها وسُكّانها. . .، وبيْتاً لآلهتهم. . .

لكنهم تحّولُوا عنه وهجروه. . . وتركوه خرائب وأطْلالاً!!! لم يَهْدِمُوه ولم يزُيلوه. .!! بل تركوه قائماً كالشّاهد!!!،

فلماذا يا تُرى؟

وما السّبب في ذلك؟

تعال معنا ـ يا ولدي ـ نَتَعَّرف إلى الجزيرة وأهلها ونكتشف سويّاً [سِرّ بيْت الأَشْباح]. . !

[لقد جرت أحداث قصتنا هذه في الجزيرة الْأُمّ لِجُزُر «المالْديف»، في الشرق الْأَقْصى. . .، حيث

ـحْتضن مياه المحيط الهادي . . . الـزرقاء، العميقـة، الصـافية . . . ، آلاف الْجُـزُر السـاحـرة، ذات الطبيعـة الخلاّبة .

يحدّثُنا عنها التاريخ في أَسْفاره الضخمة، ويرويها لنا الرَّحّالة العربي الشهير «ابن بَطُّوطة» بِصِدْقٍ وواقعيَّةٍ وأمانة . . .]



عُرْسُ الْعِفْرِيت

قال الرّجُل في ذُعْرٍ:

ـ ما هذه الأصواتُ الْمنكَرة؟

وما هذه الـولْوَلـة التي تَنْحَرُ سُكُـون اللَّيْل وتُـؤَرِّقُ المضاجع؟ سَأَل الرجل نفسه، وقد صلّى عشاءَهُ وأَدّى فريضته وتهيّأَ لِلنَّوم . . .

لقد طار النُّعاسُ من عينيْه، وأحسَّ كَأَنّ قلبه يكاد يقفز من صَدْره لِشِدَّة آضْطرابه وآختلاجه . . !

إن الأصوات ليست بعيدة، كأنها في غـرفته الـتي يُقيمُ فيها؛ ممّا زاد في جَفْلتِهِ . . . ويقظته ! !

قام إلى النافذة يسْعى، ثم فتحها وأَطَلّ . . .

فــرأى بَيْت جــارتــه الْأَرملة مُضــاءً . . يَمُــوج بـالحـركـة . . . ، وخيـالات أشخـاص تغـدو وتـروحُ بداخِلهِ ! ! ! ،

أمـا الأصوات التي هَـزَّتْه من قَبْـل، وكانت سبب قيـامه، والْـوَلْولـهُ التي أفزعتـه. . .، إنهـا تشْتـد الآن مصحوبة بالعويل والنَّحيب.

فـٱعتقد صـاحبُنا أَنَّ سُـوءاً أصاب. . جـارته التي قدَّمت له كُلّ خِدْمةٍ ومساعدة منذ أن وطئت قدماهُ أرض الجزيرة. . في الأيام القليلة الماضية. . .، وكانت له بمثـابـة الأُخْت الكُبـرى، تـرعى شؤونـه، وتقْضي حاجاته، وتوفّر له كُلّ أسباب الراحة. . .

أَلِفَها وأَلِفَتْهُ. . .، ونَشَأَ بيْنَهما وُدٌّ وٱحْترام. . .

لم يعُـدْ بـإمكـانِـهِ أَنْ يتبـاطـأ عن نَجْـدة الجـارة العـزيـزة. . .، أو يَتْـرك لحـديث النَّفس أن يـطول أكثر. . .، فلعلَّ اللحظات القليلة يكون فيها الخلاص والإنقاذ، ودفع الأذى والضرّ. . .

فأسرع يُبادرُ الباب، ويندفع راكضـاً عبْر الـطريق الفاصل بَيْن سكنِهِ في غُرْفَتِهِ وبَيْن بيت الجارة الْأَرملة.

* * *

العـــروس

وقرع الباب بإلْحاح . . .

فَفَتَحُوا لَهُ، ودَخَلَ عليهم . . . ، وقد سبق له أن زار الأَرْمَلة وآبنتها الشابّـة أكثر من مـرّة، مطمئِنّـاً عليْهما، ساعياً في خِدمتهما، كما بادلتـاهُ الزيـارة أيْضاً ولِنَفْس الغرض،

فَرَأَى الأمّ دامعة العينيْن، مُحْمَرة المقْلتيْن، مْشَعَّثة الشَّعْـر . . . ، ورأى إبنتها الفتاة بيْن يـديْهـا في أكمـل زينة، قد صُفِّف شَعْرها، ووُضع فَوْقه إكليل من الزهور الجميلة ذات الـروائـح الـشّـذيَّة، وطُليَ وَجْـهها بـالمساحيق، وحُلِّي جيـدُهـا بعقْـدٍ من اللؤلؤ الفـاخـر الثمين، وآرْتدت ثَوْباً ناصِع البياض، طويلاً . . . سابغ الذَّيْل . . .

فزادها كل ذلك جمالاً وفتْنة بالإضافة إلى ما كانت

تتمتَّعُ بِهِ من بهاءٍ وحسْن فِطْريَّيْن. . .

رآها، صاحِبُنا، وسْط حشْدٍ من النِّسْوة، من الأقارب والجيران، كُلّهن باكيات ناحبات. . . مُوَلْوِلات.

بُهِت وَتَحيَّر!!!

إن المشهد لا يدعو إلى بكاءٍ وعويل. . !

والفتاة تبدو في ليْلة زَفاف، ولم يكن يعرف أَنَّ أحداً قد خَطَبَها وعَقَدَ عَلَيْها، فالموقف ـ كُلُّه بالنِّسْبة إليه ـ مفاجأة. . !!

وسَأَلَ جارَتَهُ الأرملة قائلاً:

ـ لقد رُوِّعْتُ بما سمعْتُ وأَسْمع من صُراخ ولْولة، فجئتُكُم مُسْتَفْسِراً مُنْجداً، فَلَمْ أرَ بأَساً. . . بل أراني أَحْضر الآن عُرْساً!!!

قالت الجارة في تنهُّد وحسْرة، تكادُ كلماتها التي تَخْرُجُ مع حشرجةِ صدْرها تلْتهب وتسْتعر بأنْفاسها:

ـ بل نحن في مأتم يا سيّدي. . .، ولا يغرنّك ما

ترى من زينةٍ . . . !! وثيابٍ فاخرةٍ وحُلِيّ . . !!

تفضّــل بــالجُلُوس أوّلاً وآسْتَــرح . . ، ولا يليق أن تبْقى هكذا واقفاً . . . ، ولسوْف تسمع حديثاً عجباً!!!



عِفْريتُ الشاطئ

وجلس صاحبُنا في أَقْرَبِ مقعدٍ. . . ،

وجلست الجارة إلى جانِبِه وهي تكفْكف دُمُوعها، ثم قالت:

ـ منذ عشرات السِّنين. . . ظَهَر في ذات ليْلةٍ على شاطئ جزيرتنا عِفْريتُ خارجٌ من الْبَحْر، قد شق الأمواج وٱنتصب كالمارد، فَأرْعَبَ الصيَّادين الذين فَرَّ أَكْثرهم. . . إلاّ قِلّة أَعاقها عن الهُرُوب لَمُّ شباكَها وأدواتها. . . وتعثُّر خُطواتها. . .

وصَرَخ فيهم:

ـ يا سُكّان الجزيرة. . . أُريدُ في كُلّ مطلع شَهْر عروساً من أَجْمل فتياتكم العذارى، تأْتونني بها إلى هُنا. . . ، وتتركُونها في بَيْتِ الآلهة، مَعْبدكم هذا. . !

وكان لنا عند الشاطئ بناءٌ يَضُمُّ آلهتنا ـ كما تعْرِف

-، هُوَ معبدنا الذي نؤدّي فيه طقوسنا وصلواتنا، ونحرق الْبُخور. . . ونُقدِّم القرابين. .

قال صاحِبُنا مقاطعاً:

- أَعْرِفُه. . . أيّتُها الجارة العزيزة. . .، فقد كانت نجاتي من مركبي قريباً مِنه، يَوْم هبطت جزيرتكم هذه منذ أيّام. . .

وبَعْدُ. . فماذا كان من أَمْر هذا العفريت؟؟

قالت المرأة:

- ولقد هدّد العفريتُ الصيّادين بأنّه سَوْف يُدمّر الجزيرة على رؤوس أَصْحابها إن لم يُنَفِّذوا رغْبته في إحْضار عروسٍ عَذْراء مع مطلع كل شَهْر. . .

ثم غابَ عن الأعيُن والأَبْصار، وآختفى كما ظَهَر. . فجأة. . .، كأن أرض الشاطىء آنشقَّتْ برمْلها وزَبَدِ مَوْجها. . . وآبْتلعتْه.



عِنْد الملك

وحضر الصيَّادون إلى قَصْر الملك وحدَّثوه بما رَأُوْا وسَمِعُوا. . .، لكنَّه لم يُصَدِّقْهم، وظن أَنَّهم مخبولُون. . .، أَوْ توهمُوا الْقِصَّة والحادثة. .، فصَرَفَهُم من حَضْرتِهِ، وزَجَرَهُم!!! وعنَّفَهُم!!!

لكن النّاس في الجزيرة أكثروا من اللَّغَط والحديث؛ وسَرَتْ فيهم الأَقْوال، فكانت مدار ٱجتماعاتهم ولقاءاتهم ومادَّة سَمَرِهم في بيوتِهِم. . .، ومبْعث تخوُّفهم كُلَّما ٱقْتَرب الموعد الذي حَدَّدَه العفريت لعقابهم.

٢

العـاصِفَـةُ

ولمّا حان اليْوم الأوّل من الشَّهْر. . . ، خَلَتْ طرقات الجزيرة من الناس، وبادروا إلى منازلهم مبكّرين على غير عادةٍ. . . ، ينْتظرون ويترقّبون،

وبَعْد أن غربت شمس ذلك اليوم. . .

ظَهَرَتْ في الأفق النّذُر. . .

هبَّت الرِّياح العاتية فكانت تَصْفِرُ صفيراً شديداً يكاد يصمُّ الآذان، وتقتلع الأشجار من جُذُورها؛ تلْقي بها بعيداً، وتَخْلَع نوافذ الْبُيُوت وتَضْرب في كُلّ جوانب المنازل ثم تُبَعْثر الأثاث. . . وتُحَطِّم بعضه، ثم تفجرت السماءُ بماءٍ مُنْهمر، مصْحوبٍ بقَصْف الرعْود. . تهْدرُ وتُزمجر، ولَمَعان البرق يُعشي الْعُيُون والأبصار. . . ويُحيل ظلمة اللَّيْل الدامس إلى ما يُشبه النهار. . .

وإذا بأَمْواج البَحْر تعْلو حتى تغمر الشّاطىء... وتجرُّ معها في عودتها إلى البَحْر الزاخر كثيراً من خشب الأكْواخ التي تهدَّمتْ... وأثاثها البسيط المتواضع.. وأيضاً ببعض الضُّعفاء من الشُّيوخ والأطفال فإذا هُم غرقى... قد إبْتَلَعُهم قاعُ المحيط...

قال صاحِبُنا لجارتِهِ:

ـ وماذا كان من شَأْن الملك في قَصْرِه..؟

فَرَدَّت الجارةُ:

ـ كُنْت سَأُحُدِّثك عن ذلك، لِأَنَّهُ هُو الأَهَمّ في الْموضوع...، وهو مِحْور ما سيكون بعد ذلك...

لقد أُصيب الملك بما يُشْبه الجنون...، إذْ لم يبق في القصر نافذةُ واحدة...، كُلُّها تطايرت...

وغرق الأثاث والرياش الفاخر في بَحْر من مياه الأمطار، وتحطَّمت التحف الثمينة المنتشرة في أَبَهائه...، وتجَّمع أهل الْقَصْر كلّهم في الأُقبية التَّحْتيّة التي تُشبه

الملاجىء . . . ، يحتمون من المَوْتِ الزاحف والخطر الدّاهم . . .

كان الذُّعر بادياً على كُـلّ الْوُجُـوه، قد آسْتَعَـر في القلوب وزلزل النُّفُوس والعقول، وآعْتَقد الملك بأَنه قد وقع هو ومواطنوه ورعيته من أهل الجزيرة تحت رحمة العفريت!!!



أَشْـلاء.. وخـرائب..

ومضت الليلة الـرهيبـة. . . ، بعــد أن آستمـرَّت العاصفة الهوْجاء تَضْرب كل شيْء في الجـزيرة طـوال اللَّيل. . .

ومع الصباح. . . ، بعـد أن هدأ كُـلّ شيء. . . ، وأَشرقت الشَّمْس. . . ، وكَأَنّ شيْئاً لم يكن. . . ، خَرَج الناس من مكامنهم يتلمَّسون ما بقي. . . ، كان المنظر مخيفاً حقاً!!!،

أشلاءُ جُثثٍ هنا وهناك. . ، وأكواخ وبيوت صغيرةٌ مهدَّمة تماماً، والـوحول تُغَـطّي الْأَرْض. . . ، ومزارع بـأكْملهـا قـد تحـوّلت إلى أراضٍ قَفْـراء جَـرْداء. . . تمدْدت فيها الْأَشْجار كجثث الموْتى. . ، وطيورٌ كواسر تُحــوِّم في الجـوّ ثم تَنْقضُّ على الْأَرْض تَنْهش اللَّحْم حتى العْظم. . . وخرج الملكُ يتفقّد البلاد والعباد. . .

وكان في حالةٍ من الوجُوم والحزْن الشديد. . . ، يحيطُ بِهِ بعض أفرادُ حاشيته. . . ، مقطَّب الجبين، معبّس الوجْه، تترقْرق الدُّموعُ في عينيْه. . !!

ثم عاد إلى قَصْرِه. . . ،

وجَمَع أركان حُكمه ومُعاونيه، وقرَّر بعد المشاورة أنْ يخضع لرغْبةِ هذا العفْريت. . . ، ويحقق له ما يُريد. . . حفاظاً على جزيرتِهِ من الدَّمار والهلاك. . . ، وعلى شَعْبِهِ من الفناء والزّوال.

قال صاحبُنا لجارتِهِ:

- يَعْني. . . تُقَدِّمون له فتاةً عَذْراء من بنات الجزيرة، عروساً مع مطلع كل شَهْر. . !؟

قالت:

- نعم، يا أخي. . . ، فإنّ من تقع عليْها الْقُرْعة تُزيَّن أَجْمل زينة، وتُحلّى بأفْخر وأثمن الجواهر، ثُمّ تُحْمل إلى المعْبد. . .

قال صاحبنا:

وماذا كانَتْ تَفْعل المسكينة؟

قالت:

ـ كان ذَووها وأقرباؤها... والناس جميعاً.. يأتُون المعْبد في الصباح الباكر، وقد سهروا ليلتَهُم تلْك فيما يُشْبه المأْتم... بَيْن الدموع والبُكاء والنَّدْب...، فيجدونها جُثَّةً هامدة، قد عَبَثَتْ بها أيدي العفريت حتى خمدتْ أنْفاسها...، فَيَحْمِلُونها إلى حَيْث يحْرقونها.. ثم يذرّون رماد ما تبقّى من جثّتها في الهواء...

ثم أَضافَتِ الأُم الحزينة:

ـ وهذا الشَّهْر قد أصابت القُرْعة آبْنَتي الوحيدة..!! وكُلَّ أملي في الحياة، إذ لَيْس عندي زَوْج كما تَعْلم، وأنا أَرْملة مُنْذ ما يزيد على العشْر سنوات، قد أَفْنيْت حياتي في سبيل آبنتي الحبيبة..

كانت تروي خاتمة الحديث وهي تَشْهق بالْبُكاء، متقطّعة الأنفاس، لاهثة الصَّدر...، بَيْنها وبَيْن الأَغماء لحظات مَعْدودات...

فبادروها ببعْض الماء يمسحون به وَجْهها...،

ويسقونها بعض القطرات. . . ،

وكان صاحِبُنا قدْ هَبَّ واقفاً يُساعد في إسْعافها حتى ٱستعادَتْ بعض وعْيها ونشاطها. . .

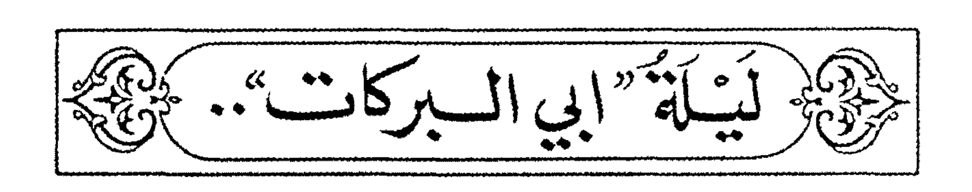
وفَرَك صاحبُنا بيديْه. . ، ثُمّ قال وقد سَرح بخيالِهِ بعيداً:

ـ أَلَيْس هناك من ٱستثناء. . ؟

فرَدَّت عليه بعض النِّسْوة من الحاضرات:

ـ أَبَداً. . ، حتى إن ٱبْنة الملك نفسه تخضع لِلْقُرْعة، شأنها شأن غيرها من بنات الجزيرة العذارى. . !! لا فَرْق بَيْن أميرٍ وحقير!!!





كان صاحبُنا يُدْعى : «أبا الْبَرَكات» . .

مغربّي الْأَصْل . . ، من الشاطىء الإِفريقي الممتد على طـول السـاحـل الـشمـالـي للبـحْـر الْأَبيض المتوسّط . . .

وكـان متـوسّط الْعُمْـر، في الأربعين من عمـره، أَوْيزيد قليلاً . . . ، ومن الزُّهـاد العُـبّـاد، يعبـد الله تعالى بإخلاصٍ وصِـدْق . . ، عازفـاً عن شؤون الدُّنيـا ومتعـة الحياة . . . ، يكتفي بـالقليل الـذي يُقيم أَوَدَه، ويُعينُـهُ على العبـادة والقيـام . . . ، ثم يصُـومُ أكْثَـر أَيْامِهِ . . .

حصَّل كثيراً من الْعُلُـوم في كتّاب بَلَدِهِ، ثم تتلْمذ على كبار الشُّيُوخ والعلماء . . . ،

ثم أراد أن يَسْتزيد. . ، فَرَحَلَ عن ديارِهِ بٱتّجاه المشرق، وتَنَقّل في الدّيار ولأَمْصار، يحطُّ الرّحال حيْثُ يجد ضالَّته، ويقْبل بشغفٍ على طلب العلْم والمعرفة. . .

وحجِّ إلى بَيْت الله الحرام، وزار قبْر النبيِّ «عليه الصلاة والسلام»، ومكث في الجوار الكريم مُدَّةً من الزمن، ثُمّ خَرَج يسعى قِبَلَ المشْرق، وقليلاً ما كان يطمئن بِهِ مكان. . . أو يَسْتقّر في بلد.

أما قِصة نُزُوله في هذه الجزيرة فقد كانت كَرَماً ولُطفاً من الله تعالى مَنَّ به عليه. . .

فقد كان في إحدى المراكب الشراعيّة الكبيرة. . . مُسافراً. . . ، في المحيط الهادي. . . ، بإتجاهِ «الهنْد» لكن هذه السفينة تَحْت ضَغْط هُبُوب الريَاح وٱشتداد الْعواصف جَنَحتْ بأَهْلها ورُكابها عن مرْساها وميناءها الذي تقصِدُهُ. . . ، وتمزّقَتْ أَشْرِعَتُها. . . وتحطّمتْ صواريها. . . ، ولَعِبَتْ بها الأمواج العاتية كريشةٍ في مَهب الريح. . . ، ثُمّ أَلْقَتْ بها ناحية مجموعةٍ من

الصُّخُور قريباً من الجزيرة التي نتحدَّثُ عنها. . . ، فتكسَّرتْ وتبعْثرتْ أَلْواحُها. . . ، وغَرِق جميعُ رُكّابها وملّاحيها، وأَنْقَذَ الله تعالى «أبا البركات». . . ، الذي سَبَحَ وهو يُسبِّح . . . ويَسْأَل ربَّه الرَّحْمة والعفْو. . . ، حتّى بَلَغَ الشّاطىء وهو على آخر رَمَق. . .

وتمَّ إنقاذُهُ وإسعافُهُ، وأَكْرَمَهُ أَهْل الجزيرة غاية الإِكرام، وسعوْا في خدْمتِهِ، وبالَغُوا في ضيافتِهِ. . .

وكان مَنْزِلُهُ ـ كما عَرَفْت من قَبْل ـ في «غرفة» مُتواضعةٍ قريباً من بَيْت الْأَرْملة. . .

كان «أبو البركات» من الرِّجال الّذين لا تَنْبت لهُم لِحىً أوْ ذقُون، أَجْرَدَ أَمْرَد. . . ، ليستْ له رغبة في النساء، ولا طاقة لهُ بهِن. . .

فكّر كثيراً بما قالَتْه له الْأَرملة، وما رَوَتْ لهُ من حديث. . . ، كانَ يَنْقُلُ بَصَرَهُ بَيْن الْأَم وآبْنتها. . .

الْأُمُّ المسكينة في حالةٍ يُرْثى لها، والابْنة في أَبْهى زينتها، كأَنّها في جمالها وسِحْرها وفُتونها حوريّةٌ من

حُوريات الجنّة. . .، دَمْعها كاللؤلؤ المنْثور يتحدَّرُ من عينيها على وجنتيها الـورْدتيين، وكَأنَّـه قطرات النّـدى تُبَلّل أَوْراق الزّهْر. . .

وجاشَتْ في نَفْسِهِ عوامل الإيمان. . .،

فَـأَدرك أنّ أَهْل الجـزيرة جميعـاً واقِعُـون في أَسْر الْخُرافة والْأَساطير. . .، وأَنّ الليلة العاصِفَة التي مرّتْ بِهِم ذات يوْم منذ عشرات السنين. . . مصادفـة. . .، قد أَوْقَعَتْهُم في هذه الجاهليّة. . .

لا بُـدَّ من عَمَـل شَيْء مـا يُعيـد إلَيْهم تـوازُنَهُم وصوابهم. . .، ويُنْقِذُ فتياتهم العذارى. . .، خصوصاً إبنة جارتِهِ الْأَرْملة. . .



أنا.. لهذا العِفْريت؟!؟!

قال «أبو البركات»:

ـ أَيَّتُها الجارة العزيزة. . .، أُريدُ أن أقترح عَليْكُنَّ أَمْراً يكون فيه خلاص آبْنتك. . . وبنات الجزيرة. .

قالت في آنْكسارٍ ويَأْس:

ـ وماذا تريد أن تَفْعل؟ هَلْ تُقاتل هذا العفريت الجنّي؟ وهل لك بِهِ طاقةٌ وقُدْرة؟، أَمْ هل تريد أَنْ يَفْتك بنا ويَقْضي عَليْنا ويَمْحو جزيرتنا من الْوُجُود. ؟

فقال مُبْتسِماً:

ـ لَيْس شيْئاً ممّا ذَكَرْت. . .، ولكن دَعُوني أَذْهَبُ إلى المعْبد بَدَلاً من الفتاة. . . فقط. .

قالت:

نخشى عليْك... وعلى أَنْفُسنا..!

فقال:

- لا تخافُوا..!



مَــع الله

ولم تجـد النِّسْـوة بُـدّاً من تنفيـذ رغبـة «أبي البركات»، وأذْعَنَّ له. . .، بعد إلْحاح وإصْرار. . .

فَخَـرج من بَيْنِهِنَّ. . .، وقصد إلى المعْبد عِنْـد الشّـاطىء. . . كـان المعبـد بنـاءً من غـرفـةً واحـدةٍ فسيحـة. . .، واسعـة. . .، تـقـوم في وسـطهـا الأعْمِـدَة. . . كأنهـا القاعـةُ الرّحْبـة. . .، ولهـا عِـدَّةُ نوافذ. . .، وتنتشر التماثيل في أَرْجائهـا، منها مـا هو على شكـل الأشخـاص، ومنهـا مـا هــو على شكـل الحيوانات والطيور.

خافِتَة الإضاءة، عابقـة ببقايـا روائح البخـور. . . فيها وحشة ورهْبة. . .،

لكنَّ «أبا البركات» حين دخل من الباب سمّى الله تعالى، وٱسْتَعاذ بِـهِ من الشَّيْطان الـرجيم، وأَقْبَل على

الصلاة، يقومُ فَيُطوّل القيام . . . ، ثم يَرْكع فَيُطَوِّل الرّكُوع . . ، ثم يَسْجد فيطوّل أكثر، وهو يسبّح الله تعالى ويذكره، خاشِعَ القلْب، مُطْمِئنَّ الْفُؤاد والجوارح . . . ،

كان يَقْعُدُ قليلاً، فَيَقْرأ القُرآن الكريم بصوتٍ جهوريّ عالٍ، فيه رنّةٌ كأنها النَّغَمُ السماويّ، تَحفُّها الملائكة وتُنْشِد بها وتُردِّدها . . .

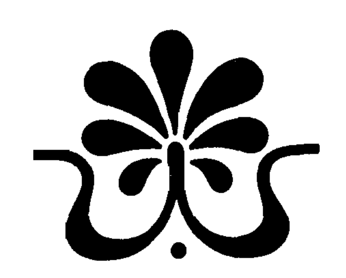
ثُمّ يَبْسطُ يَدَيْه في الدُّعاء . . في ضراعةٍ وخَشْية . . . ، وعيناه لا تَنْفكّانِ عن الْبُكاء، تشهد له بالتَّقْوى والإِخلاص، طامعاً في حُسْنِ المآب وخَيْر الْمُنْقَلب.

وفي لحظاتٍ خاطفةٍ عابرة كان يرى من خلال نوافذ المعْبد كَأَن خيالات أَشْباح تجيء وتَروحُ . . . ، تَعْلو وتَهْبط . . . ، ووجوه كالحة شاحبة ويسمع أصْواتاً تُشْبه الصَّفير الحادّ . . .

فلا يُبالي بها ولا يَهْتم، ولا يُداخله شَيْء من الْقَلَق أَوْ الخوْف . . . أو الاضطراب، بل يعودُ إمّا إلى

الْقراءة. . أو الصلاة. . أو الذِّكْر. . ويستغْرق،

إنّها خَلْوةٌ تعوَّدها من قَبْل، فكثيراً ما كان يَقْضي لياليه على هذه الصُّورة والكيفية. .، يَصْحو والناس نيام، ويقوم والناسُ في رُقاد. . .، ويذكُر ربَّه وأكثر الناس غَرْقى في الْأَحْلام.



ذُيُـوعُ الْخَبَـر..

خَرَجَتْ إحدى النساء من بَيْت الأَرْملة إلى أهلها في بَيْتها، وحدثَتْهم حديث «أبي البركات» . . . وإصْرارَهُ على الذهاب إلى المعْبد بَدَلاً من الفتاةِ . . . فَذُعِروا وخافُوا . . .

وأَيْقَظوا جيرانهم وَأَخبـروهم الْخَبَرَ . . . ، فقـامت قيامَةُ النّاس جميعاً، وآشْتد اللّجاج والصَّخب . . . ،

وخَرَج الرِّجالُ من بُيُوتِهِم . . . وكُلُّ أَهْل الجزيرة، يُذَكّر بَعْضُهُم بعْضاً بحكاية اللَّيْلة التاريخيّة العاصفـة، التي كادَتْ تبيدهم ذات يَوْم . . .

وَلبثُـوا ينتَـظرون نُـزوُل العـذاب بَيْـن لحـظةٍ وأُخْـرى . . . وتقـدَّم بَعْض الأَشخـاص من المعْبـد. يترقَّبُـون، ويَحتمـون ببعض الأشجـار البـاسقـة، أوْ بـالجُذْران الضَّخْمـة . . . ، هـالعـةً قلوبهم، متـطاولـة أعناقُهُم، مُضْطربة نفوسهم وأَفْئدتهم . !

إِنَّ قُرآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُودا

وقارَبَ الْفَجْرُ على الْبُزُوغ . . .

وكــان كُلَّمـا بَصَّ بصيصٌ آرْتفــع صَــوْتُ «أبي البركات» بتلاوةِ القرآن وآياتِهِ البيِّنات ، حتى خُيِّل إليْه أَنَّ الكوْن كُلَّه يَقرأ معه . . . ، وحتّى الحجارة الصّمَّاء تُردِّد رَجْع تلاوتِهِ، وعُذَوبة تَجْويدِهِ . . ! !

ثُمّ قام يُؤذِّن، وأَطْلَقَ لِصَوْته العنان . . . ، وخَرَجت التّكْبيراتُ كأَنّها تهْدر في أَسْماع النّاس الْمُتَرقبين . . ، وهُــم لا يَــدْرون مــا يَسْـمَـعُــون، ولا يـعِـقـلُون ولا يَفْهَمُون . . .



... سليمًا مُعافى..

وآنتشر ضَوْء الشَّمْس تُرْسل أَشِعَّتها الذَّهبيّة على الجزيرة...، الجزيرة الّتي نَجَتْ من الشّر المنتظر والخطر المتوقّع...، وتراكَضَ الناسُ نحو الْمَعْبد، في هرجٍ ومرج...، وأهازيج وأناشيد...، ومهرجان من الفرح الغامر...

وخَرَج إليهم «أبو الْبَرَكاتِ» سليماً مُعافى، كما دَخَل، لم يَمْسَسْهُ سُوء، وكانَتْ جارَتُه الْأَرْملة وآبْنتها قد خرجتا مع الناس، فَهُما أَوْلى من غيرهما بالتَّرقُّب والأنتظار، وأَجْدر بالتّهنئة... وأحق بالْفَرْحة.



مَنْ أنْتَ؟ وماذا فعَلْتَ؟

هذا اليْوم المشهود في تاريخ الجزيـرة، الجزيـرة الأُم من جـزُر «مالْـديف» كـان لـه صـداهُ الكبير وأَثره العظيم . .

كان يَوْمَ تَغْيير أساسّي وآنقلاب جَذْريّ . . !!

فقد وَصَلَ الخبُر إلى الملك في الْقَصْر، فآسْتَدْعى إليْه كبير أعْوانِهِ، وآسْتَفْهَم مِنْه عن كُلّ ما حدث وجرى في تلْك الليلة . . .

كان يَسْمع من وزيره التَّفاصيل بآهتمام . . . ، حتى آسْتَوْعبها جيمعاً، ثم قام عن كُرْسيّ عَرْشه يغدو ويَروُح في القاعة، يُطْرق أحْياناً وقد تَجمّد في مكانـه . . ، ثُمّ يَمْضي . . وقد يَبْلَغُ إحدى الشُّرفات فَيقفُ عندها متأمّلاً سارحاً ببصـره في أرْجاء الجـزيرة . . ، لا يستقـرّ نظره على بناءٍ أَوْ زَرْع أو غير ذلك . . !!

ـ إنَّهُ حَدَث عجيبٌ غريب!!! إيتوني بهذا الرَّجُل حالاً . . .

قال الملك لوزيره.

ثم عاد إلى مقْعدِهِ، على كُرْسي عرْشِهِ الذي يَعْلُوهُ تاجٌ مُذَهب، وقد رُصِّعَتْ أَخشابُهُ بالحجارة الكريمة. . . ، فبدا قِطعةً فَنّيّةً تَأْخُذُ بالألْباب، وتسحر الأَبْصار.

كان الْمِلكُ من العاقلين، لا يُؤْخَذُ بظواهِرِ الأُمور، جادّاً في حياتِهِ لا يعرف اللَّهْو ولا الْعَبث، عادلاً حازماً. . . مَحْبوباً من رعيّتِهِ.

لكن طُغْيان الأَسْطورة القديمة كان من تُراث أَهْل الجزيرة وتاريخهم، وقد آستبدَّ بهم وجَرَفهم حتى الملك؟!!!



بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ...

وقال قائد مجموعة الحرس الذين جاءُوا يطلبون «أبا البركات» في غرفتِهِ المتواضعة:

ـ أَجِبْ دَعْوَةَ الملك..

فَتَبَسَّم «أبو البركات» بَسْمة الرضى، وخَرَج مع القادمين، وآسْتعان الله تعالى.

فلمّا دَخَلَ على الملك، وتقدم إليه، لم يَحْنِ رَأساً، ولم يفعل شيْئاً ممّا آعْتادَهُ الناس في تحيَّة الملُوك، بل قال:

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ـ أيُّها الملك ـ!!

لم يَفْهَم الْمَلِكُ شيْئاً مما قاله «أبو الْبَركات»، سوى أَنّه أَدْرَكَ أنها تحيّة، فقد كانت اللُّغة مختلفة...، ولذا تَوَسَّط بَيْنهما مترْجم.

قال الملك:

ـ إسألْهُ: مَنْ هُوَ؟ ومن أين؟

فَشَرَح «أبو الْبَرَكات» ظروف مجيئه إلى الجزيرة، وتحــدَّث عن أَصْلِهِ ونَسَبِــهِ وبــلادِهِ. . . وأَسْهَب[1] في البيان.

ثم قال «الملك»:

ـ أريدُ أنْ أَعْرِف تماماً ماذا فعلْت في هذه اللَّيلة، فأتقْيت شَرَّ الْعِفْريت، وأَنْقَذْت الجزيرة. . . وكذلك فتاتنا العذْراء. . .

فقال «أبو البركات»:

ـ كُنْتُ أقْرأُ الْقُرآن الكريم، وأصلّي. . ، وأذكُر الله تعالى. . !!

قال الملك:

ـ تَقْرأ الْقُرآن!!! وما هُو القرآن؟ وتُصَلّي!!! وكيْف تصَلّي؟ وتذكر الله تعالى!!! ومَنْ هُوَ الله؟

---

(١) أَسْهَبَ: أطال.

وتحدَّث «أَبُو البركات». . .

وشَرَح للملك كُلّ ما أراد أن يَعْرِفه، وكان ـ بما أُوتيه من عِلْم وفَهْم، وحُسْن حديثٍ ـ . . .، تخرج الكلمات والمعاني من قلْبِهِ على لسانِهِ صافيةً مُتدفّقة. . . كأنها تَسَلْسُلُ الماء العذْب، وتَنْزل على نَفس الملك وقلْبِهِ بَرْداً وسلاماً. . .

وآستطاع فيما وَسِعَهُ من وقْتٍ وجيز أَنْ يُقدِّم للملك صورةً مُشرقةً واضحةً عن الدّين الحنيف. .



وأنا أوّل المسلمين..

ودخلت كلماتُ «أبي البركات» إلى أعماق الملك، وآنْتَشَرَتْ في قلْبِهِ وآشـرَقَتْ، ثُمّ ظهرت على قسمـات وَجْهِـهِ عـلامـات رضىً وقنـاعـة، وتجــاوُبٍ وآطْمئْنان. . .

وقال «الملك» لـ «أبي الْبَرَكات»:

- إنّك لديْنا اليْوم مكين أمين. .

وأنـا أَشْكُرُك بلسـان جميـع أبنـاء شَعْبي على مـا قدَّمْتَ لهم. . .

أَقِمْ بَيْن ظَهْرانيْنا آمناً، مُعزَّزاً مكرَّماً مُقدَّماً. . .

ولكن!!،

وتـوقّف الملك عن الكلام قليـلاً، وكَأَنَّـه يستعيد ترتيب أفكاره في ذهْنِهِ، ويَسْتَرجِعُ الْأَحْداث، حتى لا يُقْـدِمِ على أمْرٍ فيـه مخـاطـرةٌ ومغـامـرة. . ! لا تُحْمـد

عُقْباها، أو تأْتي بالكارثة..

وتابع الملك:

ولكن.. لا بُدَّ وأن نَمُرَّ مَعَكَ بِتَجْرُبةٍ أُخرى مع مطلع الشهر القادم، فإذا صَدق فِعْلُك قَولَك كُنْتُ أَوّلَ المسلمين، وأمْرتُ شَعْبي بالإسلام... وتابعْناك... واَقْتديْنا بك.

ثُمّ علَّق الْمَلِكُ على ما قال آنفاً:

ـ هذا هُو المنْطق والحقّ!!!

فتبسَّم «أبو البركاتِ» ضاحكاً من قوْله، وعقّب:

ـ وأنا رضيت...، فالله وحده هو المسؤول والمأمول، وله الحمد على كُلّ حال؛ وإنّي لَأرْجو خيْراً.



فَـرْحَةُ النـاس..

عـاد «أبو البـركات» إلى غـرفته. . . إلى مسكنـه البسيط المتواضع. . .، وكـان أوّل ما فَعَـل أن تَوَضَّـأَ وصلّى ركعتين لله تعالى شُكْراً على ما أَوْلاهُ إيّاه من كَرَم وعناية. . .

وأطال سُجودَهُ، ودعـا رَبَّه العليَّ القـدير أن يلهم الملك الصّواب والسَّداد، وأن يَهْديه سواء السبيل.

وجاءَتْه جـارتُه الأَرْملة ومعهـا ٱبْنَتُها تَحْمـلان إِلَيْه طعاماً وفاكهة، فَرَحّب بهما وأَكْرَم لقاءَهمـا، لكنّه قـال لجارتِهِ:

ـ أيتُها الأَخْت العزيزة. . . إن كان ما حملْتِهِ مَعَك أَجْـراً على ما فعلْتُ فَهُـو مردودٌ عَلَيـك، إِنْ أَجْرِيَ إلّا على الله. . .، وأنا في الحقيقة لم أَفْعل شَيْئاً. . . إنما كُنْتُ أداةً سَخّـرها الله تعـالى وساقَهـا إلَيْكم، ليكشف

عَنكم البـلاء، ويَفْتـح قلوبكم وعقـولكم على الحق، ويهـديكم سبيل الـرّشاد. . . ، وإذا كـان مـا جِئت بِـهِ هــديّـة. . . ، فهي مَقْبــولـة. . والشُّكْــر لله على مـا أَنْعم. . . قالت الجارة، وقد عاد إليها صفاء وَجْههـا، وذهبت عنه مِسْحه الحزْن والْكَدَر، وأَشْرَق بالْفَرْحة:

- بل هدية. . . متواضعة. .

وأيْضـاً. . . ، أريدُ أن أُحَـدِّثك بِـأَمر خـاص. . .

قال:

- وما هُو؟ لعلّني أقدر عليه. . !؟

قالت:

- بـل هُو عنـدك، وأَنْتَ لهُ أَهْـل. . . ، أَرْجُـو أن تُعلِّمني أُصُـولَ الدِّين الحنيف، فـأُسْلم لله تعـالى بَيْن يديك.

قال «أبو البركات»:

- حُبّاً وكرامة يا أُخْتَاه. . ، لكنّ الملك طَلَب إليَّ كذا وكذا. . . ، ووعدني أنْ يعتنق الإسلام ويأمر بِهِ في البـلاد إذا مـا آخْتُبْـرتُ آختبـاراً ثـانيـاً مــع عِفْريتكم

المزعوم. . . وإني لـواثق من النجاح بعـون الله. . . ،
فاَصْبري ولا تُخالفي. . .

قالت:

- إنّي لا أَنْتظر أمر الملك ورغبته في علاقتي مـع
رَبّي!!!

قال «أبو البركات»:

- الحقُّ مَعَك. . . يا أُخْتاهُ. . ، على بركة الله.

وتَلَقَّت الأرملةُ وابنتهـا على يَدَيْ «أبي البـركـات» تعاليم الدين الحنيف، وآسلَمت وواظبت على الحفظ والفهم، وأداء الصلوات. .

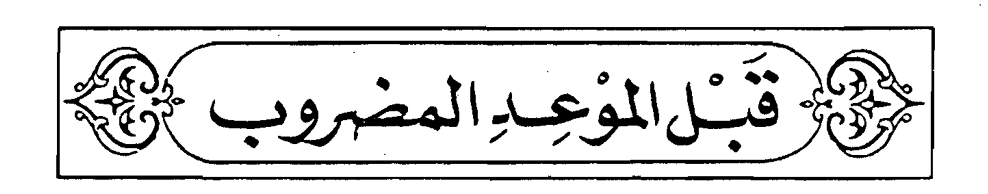
وكان مهرجـانُ الْفَرَح بـالخلاص من شـرور وآثام العفريت، وكَذِب الأسطورة، قد عمَّ كُلّ الناس. . . ، وآنْـزاح عن قلوبهم كابـوسُهُ المخيف، كمـا زالت عن عيونِهِم غشاوة الجهْل، والتَّصْديق بالخرافات. . .

وأصبحتْ غُرفَةُ «أبي البـركات» محجَّـة لدى كُـلّ

الناس، يتوافدون إليها في مختلف الْأوقات . . .

وأَسلَمَ أَكْثَرُهم . . وآمَنَ . . . ، وتعلَّمـوا من «أبي البركات» وتلقُّوا عَنْه .





قَبْلَ المَوْعِدِ المضروب

وكـان الملك في قَصره يتلقّى أوّلاً بـأَوّل ما يَفْعله النّـاس من الإِيمـانِ والإِسـلام. . . ، فـلا يَغْضب ولا يَثُور. . .

لقد أراد هذا الملك العاقل أَنْ يُعْطي النّاس فُرْصة الاختيار بَعْد الإقتناع، والإِقبال على الإِسْلام بالـدافع الشَّخْصي من الداخل، أَما قوْله لـ «أبي البركات» الذي سَبَق وأَعْلَنَ عنه فلم يكُن إلاّ من قبيل المناوَرَة. . .

وإذا بـالملك يُعْلِن هُو أَيْضـاً إسلامـه. . . ، وقَبْل المـوْعـد المضـروب، المحـدّد مـع أوّل الشَّهـر الطالع. . !!

ثم أمَرَ بإزالة الأوْثان والأَنصـاب. . . ، وهَدْم كُـلّ تمْثال. . . ، ولكن أبقى على الْمَعْبد الذي كان يَضُمُّها عند شاطىء الجزيرة؛ ليكُون الشاهد دائماً على آنْدحار

ظلام الْجَهْل والْأُسطورة أمام نُور الإِيمان. . .

وهكـذا ـ يا ولـدي العزيـز ـ سقط السّتْر عن سِـرّ [بَيْت الأشباح]، وأزاحَتْه إلى الْأَبَد، يَدُ «أبي البركات» المؤْمنة!!!

وإلى اللقاء مع:

[السّر تَحْت الشّعْر]




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



سلسلة الأسرار الإسلامية

- سِرّ الحجر
- سِرّ الكنز المرصود
- سِرّ السّيف المخطوف
- سِرّ بيت الأشباح
- سِرّ الرّمح الملتهب
- سِرّ السرداب
- سِرّ القافلة
- سِرّ الأقدام والأغنام
- سِرّ السّيل والليل
- السِّرّ تحت الشعر